جامعة الشهيد حمّة لخضر – الوادي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

مخبر التنمية الاجتماعية وخدمة المجتمع

المؤتمر الدولي التكويني لطلبة دكتوراه العلوم الاجتماعية

النظرية الاجتماعية: الممارسات التطبيقية والآفاق

مداخلة تحت عنوان:

دور تبني النظرية الاجتماعية الغربية في عرقلة الإقلاع الحضاري بالوطن العربي

بوفلجة غيات

جامعة وهران 2، محمد بن احمد

مقدمة:

تطورت النظرية الاجتماعية الحديثة والسائدة في العالم، في ظل مجتمع غربي مسيحي مادي بخصائصه وأهدافه وطموحاته، وقد أدّت التطوّرات التاريخية و توسّع الاستعمار الغربي ليشمل جلّ دول العالم ومنها العالم العربي والإسلامي، إلى انتشار النظريات الاجتماعية الغربية بهذه الدّول. وقد سعى الاحتلال إلى تعزيز هذه النظريات من خلال المنظومة التربوية والجامعات ومراكز البحوث، التي أنشأها أو أشرف عليها بالدول التي احتلها. علما أن هذه النظريات لا تتناسب مع واقع الدول العربية الإسلامية، ولا تخدم أهدافها وطموحاتها في التنمية، بل أنها تساهم في عرقلة تطوّرها.

تتطرق هذه المداخلة إلى خصائص النظرية الاجتماعية الغربية، وظروف نشأتها، وسبل هيمنتها على الممارسات العلمية والاجتماعية والاقتصادية بالعالم العربي. كما نتطرق إلى بعض مظاهر فشل تطبيقها في الدول التي كانت تحت الاحتلال، وإلى ضرورة إيجاد نظرية اجتماعية مناسبة لواقع الدول العربية والإسلامية، للمساهمة في حل مشاكلها وتحقيق طموحاتها في الإقلاع الحضاري.

1. خصائص النظرية الاجتماعية الغربية:

إن الأصل في الظواهر الاجتماعية هو الاختلاف والتنوع بين مختلف المناطق، اختلاف في الألوان والعقائد والأديان، اختلاف في اللغات والثقافات، اختلاف في القيم والممارسات، اختلاف في الممارسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية.

وقد ظهرت النظرية الاجتماعية في الغرب، في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا، وغيرها من الدول الأوروبية. وقد تطورت في ظل الديانة المسيحية والتطور العلمي والاقتصادي، واعتماد القوة للسيطرة على مناطق الموارد الأولية من أجل استغلال خيراتها. وقد تطوّرت النظرية الاجتماعية الغربية في هذه البيئة، وبالتالي عملت على إنكار كل الثقافات والحضارات الأخرى، وحرصت على أن تكون تابعة لها.

إلا أن النظرية الاجتماعية الغربية تتجاهل هذا التنوع والاختلاف، وبالتالي نجد أنها تحاول فرض نظريتها الاجتماعية على غيرها، رغم الاختلاف الكبير بين ما هو موجود بالغرب، والذي بنيت عليها نظرياتها، وما هو موجود في دول أخرى، من دول نامية، ودول عربية إسلامية. مع ذلك يسعى الغرب إلى فرض نظرياته في كل المجالات،فلسفيا وفكريا وعلميا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا.

2. هيمنة النظرية الاجتماعية الغربية في الوطن العربي:

لقد استغل الغرب قوته واحتلاله للدول العربية في فرض لغته وطريقة تفكيره وتحليله. كما ساهم في فرض نظريته الاجتماعية في المدارس والجامعات وفي المجتمع ككل. وتعتبر فرنسا من أخطر الدول

الاستعمارية، لأنها تركز على الجانب الثقافي إلى جانب الاقتصاد، وتسعى إلى مسح القيم الثقافية المحلية. وهكذا قامت بمحاربة اللغة العربية وسعت إلى القضاء على الدين الإسلامي في الجزائر، من خلال وقوفها ضد التعليم الديني، وهو ما ساهم في بسط هيمنة النظرية الاجتماعية في الجزائر، وفي غيرها من الدول التي تمّ احتلالها وتشمل غالبية الدول العربية والإسلامية.

ورغم رحيل الاحتلال الفرنسي عن الجزائر، إلا أن نظريتها الاجتماعية بقيت سائدة إلى اليوم، وأن لغتها وثقافتها، بقيا سائدين حتى اليوم، ولها مدافعون عن هذه القيم بدعم منها.

3. تداعيات تطبيق النظرية الاجتماعية الغربية بالوطن العربي

إن تطبيق النظرية الاجتماعية المستوردة في التعامل مع مختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والصحية...، تؤدي إلى الفشل في فهم الواقع، وبالتالي الفشل في حل المشاكل المطروحة، لعدم ملاءمة الحلول المستوردة لطبيعة المشاكل المطروحة. كما أن اعتماد النظرية الاجتماعية الغربية من طرف الأساتذة الباحثين ومن طرف طلبة الدراسات العليا، يؤدي بهم إلى البحث في مواضيع لا تساهم في إيجاد الحلول للمشاكل المطروحة وفهم الواقع المحلي. بل عادة ما يتم اعتماد أساليب ومناهج خاطئة في سعيهم إلى فهم المشاكل وإيجاد الحلول المناسبة لمعالجة مشاكل المجتمع المحلي. وهو ما أدى إلى تفاقم المشاكل والعجز عن مواجهتها، وهو ما يعيق الجهود المبذولة للخروج من دوامة التخلف.

تعاني المجتمعات العربية الإسلامية من عدة مشاكل اجتماعية واقتصادية وأمنية، ناتجة عن تطبيق النظرية الاجتماعية المستوردة.

4. نماذج من فشل النظرية الاجتماعية الغربية بالوطن العربي:

هناك عدّة أمثلة عن فشل تجارب مستوردة تعتمد نظريات اجتماعية غير مناسبة للواقع المحلي، وقد كان مآلها الفشل جميعها، وفيما يلي بعضا من هذه التجارب غير الفاشلة في بعض المجالات:

ا. المجال الاقتصادي:

من التجارب الاقتصادية التي عرفتها الجزائر وطبقتها على أرض الواقع، نجد الاشتراكية التي تم تطبيقها بعد الاستقلال، والتي تمّ استيرادها من الكتلة الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي (قبل تفككه). ورغم حجم الأموال التي استثمرت في تطبيق هذا النموذج الاقتصادي، إلا أنه كان مآله الفشل وبالتالي تمّ التخلّي عنه، لكون قيم الاشتراكية لا تتناسب مع القيم السائدة في المجتمع الجزائري.

كما أن تبني النموذج الاقتصادي الغربي سيعرف نفس المآل، إذا لم يتم تكييفه مع الواقع الاجتماعي

والثقافي المحلي. وقد عرف تطبيق النموذج الغربي في البنوك فشلا ذريعا، مما أدى إلى بالسلطات العليا إلى إدخال النموذج اللا ربوي في عمل البنوك، وقد عرف ذلك نجاحا وإقبالا من طرف المواطنين، لكونه يتماشى مع القيم الإسلامية السائدة في المجتمع.

ومن أهم الأمثلة عن فشل نقل تجربة اقتصادية من بيئة إلى أخرى، ما استشهد به مالك بن نبي، عن المهندس الألماني "شاخت" الذي قام ببناء الاقتصاد الألماني في عهد "هتلر"، فكانت تجربته ناجحة في ألمانيا. وقد حاول المهندس الألماني نقل تجربته إلى إندونيسيا، إلا أنها فشلت رغم ما تزخر به إندونيسيا من خيرات وكفاءات بشرية. وقد أرجع مالك بن نبي سبب ذلك إلى ما أسماه ب "المعادلة الاجتماعية"، والمتمثلة في الفرق بين الثقافة والخلفية الحضارية للمجتمع الألماني والمجتمع الإندونيسي (بن نبي: 2000).

وهي الجوانب التي تهملها النظرية الاجتماعية الغربية، وكثيرا ما يهملها الباحثون الجزائريون والعرب عموما، بسبب تشبعهم وتأثرهم بالنظرية الاجتماعية الغربية، وهو ما عرقل عملية التطوّر والتنمية.

ب. أساليب الإدارة والتسيير:

لقد طبقت الجزائر نظام التسيير الاشتراكي تماشيا مع النظام الاشتراكي الذي كان سائدا، واعتمدته لإدارة المؤسسات العمومية، إلا أن نتيجة ذلك كانت كارثية. حيث عرف ذلك فشلا ذريعا لأنه لم يأخذ القيم الثقافية للعمال الجزائريين بعين الاعتبار، ولم يتم دراسة الممارسات الإدارية المستوردة ومدى توافقها مع الواقع الجزائري قبل تطبيقه. ذلك أن دراسة القيم الثقافية المحلية هي ركيزة أساسية لتطبيق أي نمط إداري وتسييري في أي مجتمع (غيات، 2010).

وقد أثبتت كثير من الدراسات أن النموذج الغربي أي الأمريكي والأوروبي، وهو السائد في جل دول العالم، فإن تحويل تطبيقاته إلى مخالفة الثقافة، لم يكن دائما ناجحا، وهو ما يتطلب تكييفه وإدخال تعديلات على ممارساتها قبل تطبيقة في الدول المستقبلة لهذا النموذج (Ghiat, 2020).

ج. نظام التعليم العالي:

لقد استوردت الجزائر النظام الأوروبي، ليسانس – ماستر – دكتوراه (ل. م. د. LMD) لهدف تحسين منظومة ومستوى التعليم العالي في الجزائر، إلا أنه بعد أكثر من عقد عن بداية تطبيقه، تبين أن نتائجه كانت سلبية على أرض الواقع. فهذا النظام قد وضع من طرف الأوروبيين بناء على واقعهم، وهو يراعي واقعهم الاجتماعي والتنظيمي وقد سعوا من ورائه إلى تحقيق أهدافهم. في حين أنه طبق في بيئة مغايرة وفي جامعات لها مشاكل خاصة، لم يساهم النظام المستورد في حلها (غيات، 2019).

د. المنظومة الصحية والطب البديل:

من أهم هياكل والمجالات التي تمّ استيرادها من الغرب، نجد المنظومة الصحية بهياكلها ومستخدميها، من أطباء وممرضين، واستعمال مكثف للأدوية التي تستورد في مجملها من مخابر أمريكية أو أوروبية. وهي بذلك طريقة لاستنزاف أموال الدول النامية، بما في ذلك الدول العربية. وكل ذلك نتيجة نظرية اجتماعية سائدة تعزز هذا التوجه الذي تؤكد المخابر الغربية أنه لا مفرّ منه.

في وقت نجد فيه، في الجزائر، وفي كل الدول العربية والإسلامية، منظومة متكاملة من الطب التقليدي البديل، والتداوي بالأعشاب والطب النبوي، وهو مجال مهم يلجأ له كثير من المرضى للتداوي، إلا أنه مهمل من طرف النظام الصحي الرسمي. ذلك أن المنظومة الصحة الرسمية متأثرة بالنظرية الاجتماعية الغربية، والتي تعزز الفكرة أنه لا علاج فعال خارج المؤسسات الصحية التي تستعمل الأدوية الغربية.

هناك خبرة كبيرة وتجربة عند كثير من الأفراد في التداوي بالأعشاب، ويلتجئ إليه كثير من المرضى، وأن بعض الأطباء اعتمدوا الطب البديل كمجال لنشاطهم الطبي، مما يؤكد أهمية هذا المجال في ترقية الصحة بالمجتمع.

وفي عهد كورونا، وفي سؤال عن الأساليب التي تمّ الالتجاء إليها للعلاج، فإن جل الإجابات كانت، بأنهم استعملوا الأعشاب للتداوي إلى جانب الأدوية. وإن كانوا لا يستطيعون التأكيد ما إذا كان شفاؤهم بسبب أدوية الطبيب أم بسبب الأعشاب والطب البديل.

هناك مافيا الصحة على مستوى العالم، تنشر وتعزز النظرية الاجتماعية الغربية، في طرائق العلاج الحديثة، لعلاج مختلف الأمراض والأوبئة. لذا يشك كثير من المواطنين عبر العالم بأن بعض الأوبئة مصدرها مخابر مافيا الصحة، وقد ربحوا أموالا طائلة نتيجة انتشار وباء كورونا، ومن مظاهر ذلك طول مدة بقاء الوباء وتجدده.

وقد نجحت كل من الصين وكوبا في المجال الصحي نتيجة استقلاليتها وتخليها عن النظرية الاجتماعية الغربية، والكل يعرف مدى تطوّرهما في هذا المجال الخساس.

5. الحاجة لنظرية اجتماعية محلية لتسهيل الإقلاع الحضاري بالوطن العربي:

إن فشل الإقلاع الحضاري بالدول العربية رغم إمكانياتها المادية والبشرية الكبيرة، هو بسبب تبنيها لفلسفات ووسائل وطرائق مبنية على نظريات اجتماعية مستوردة ودخيلة على الوطن العربي بحضارته وقيمه وثقافته العريقة، وأن الأنظمة والوسائل الدخيلة عليه لم تأخذ كل هذه العوامل بعين الاعتبار.

فكلما كانت القيم الثقافية والظروف الاجتماعية متشابهة ومتقاربة بين منشأ النظرية الاجتماعية وتلك التي المجتمعات التي تستقبلها كلما كانت حظوظ نجاحها أكبر. وكلمات كانت المجتمعات التي نشأت في ظل النظريات الاجتماعية مختلفة عن التي يتم تطبيقها فيها، كلما كانت حظوظ نجاحها ضعيفة.

فبسبب الاختلاف الثقافي بين الولايات المتحدة وأوروبا من جهة، والقيم السائدة في المجتمعات العربية، فإن ذلك يؤدي إلى فشل النظريات الاجتماعية المطبقة، بينما يكون نقل النظرية الاجتماعية من بيئة عربية إسلامية إلى أخرى تنتمي إلى نفس الحضارة يؤدي عادة إلى نجاحها.

أما النظريات الاجتماعية وتطبيقاتها، عند اختلاف الحضارتين، فإنجاحها يتطلب الدراسة والتمحيص والتكييف والتعديل حتى تناسب واقع الحضارة والثقافة المستقبلة من أجل الزيادة في حظوظ نجاحها.

5. شروط بناء نظرية الاجتماعية بديلة لتلك الدخيلة على الوطن العربي:

من أسباب الأزمات والصعوبات التي تعرفها الدول العربية والإسلامية، تبنيها لنظريات اجتماعية غربية، تساهم في تعزيز كل ما هو غربي وما هو مستورد، على حساب كل ما هو محلي.

إن سبب عدم فعالية البحث العلمي في الجامعة الجزائرية، كما هو الحال في الدول العربية، هو الانطلاق الخاطئ من نظريات اجتماعية دخيلة تدفع الباحثين إلى اختيار مواضيع وإشكاليات لا علاقة لها بالمشاكل المحلية، وبالتالي فهي لا تساهم في التنمية الاجتماعية والاقتصادية المحلية.

إن أول شيء يجب القيام به هو القيام تحديد معالم نظرية اجتماعية محلية، تساهم في فهم الواقع المحلي، وتسعى إلى إيجاد حلول للمشاكل المطروحة، من مشاكل ثقافية واجتماعية واقتصادية وصحية وسياسية...، وانطلاق البحث من منطلقات علمية غير متأثرة بالآراء المسبقة وآراء جهات غربية، غير تلك التي تقتضيها منهجية البحث العلمي.

عندئذ يتمكن الطلبة والباحثون من اختيار مواضيع متميزة، تهدف إلى تحقيق أهداف تخدم المجتمع المحلي. كما تمكنهم من الإبداع، في إيجاد الحلول والخدمات والوسائل الضرورية، للتنمية الاقتصادية الشاملة، وبالتالي إلى الانطلاق الحضاري، والذي ساهمت النظرية الغربية في عرقلة انطلاقه لعقود، بل لقرون.

6. خاتمة وتوصيات:

رغم الجهود المبذولة، والأموال الطائلة التي تم استثمارها لهدف التنمية، ورغم الثروة المادية والبشرية، التي تمتلكها الدول العربية والإسلامية، إلا أنها لازالت تعاني من دوامة التخلف والفقر. ذلك أن الدول العربية في مجملها، عانت من الاحتلال الأوروبي الغربي، وأخطر ما ورثت عنه هو تبنيها للنظرية

الاجتماعية الغربية، التي ترى أنه لا بديل لها سوى اعتماد النظرية الاجتماعية الغربية في فهم الواقع والتنمية. وقد أكدت أن النظرية الاجتماعية الغربية هي النظرية العلمية، وأن الغرب تطور نتيجة اعتمادها. وأنه لا بديل عنها في الدول النامية، بما فيها العربية الإسلامية.

وهو ما صدقه الساسة والباحثون واعتمدوه كمنهج للتنمية، إلا أنه ساهم في تدعيم تبعية المستعمرات السابقة بالدول التي كانت تحتلها، ولنا في ذلك مثل الجزائر التي نالت استقلالها السياسي إلا أنها بقيت مستعمرة اقتصاديا من طرف فرنسا.

إن أول خطوة يجب اتخاذها هو الوعي بخطورة تبني النظرية الاجتماعية الغربية، والعمل على بناء نظرية اجتماعية بديلة، تخدم مصالح الدول العربية الإسلامية وتساهم في فهم مشاكلها وإيجاد الحلول المناسبة لها. عندئذ يصبح بالإمكان التخلص من دوامة التخلف، وتصبح البحوث الاجتماعية في خدمة المجتمع والاقتصاد المحليين والاستقلال العلمي، ويصبح بالإمكان الحلم بإقلاع اقتصادي وحضاري وبغد أفضل.

المراجع

بن نبي مالك (2000) المسلم في عالم الاقتصاد (مشكلات الحضارة) . دار الفكر. بيروت. ط 3.

غيات بوفلجة (2001) الدوافع الثقافية للسلوك المهني للعامل: دراسة أولية، الإداري، ع. 87، ص: 11-40.

غيات بوفلجة (2006) أزمة التربية النظامية، (الجزائر: رياض العلوم).

غيات بوفلجة (2010) القيم الثقافية وفعالية التنظيمات. دار القدس. وهران –الجزائر.

غيات بوفلجة (2016) نحو مدرسة إسلامية في علم النفس، الملتقى الدولي: نحو صيغة نظرية عربية في ميدان العلوم الاجتماعية. جامعة الشهيد حمّة لخضر بالوادي 16/15 نوفمبر.

غيات بوفلجة (2018) عوائق إدارة العلاقات الإنسانية في المؤسسات الجزائرية. مجلة العلوم الاجتماعية – مجتمعيات وإنسانيات. ع. 2018/6، ص ص:36-52.

غيات بوفلجة (2019) مسار بولونيا وعوائق تطبيقه في إصلاح التعليم العالي بالجزائر. جرش للبحوث والدراسات. مجلد 20 ع. ، 1 ص: 115 – 129. (ISSN : 18142672).

غيات بوفلجة (2020) المنهج النبوي في تطوير الكفاءات القيادية وصناعة التميّز، مجلة دراسات إسلامية، مجل 12، ع. 1..ISSN : 1112-8011

غيات بوفلجة (2020) طبيعة القيَم الثقافية السائدة في المجتمع وأثرها على مدى تمكين أعضائه: دراسة أولية ، مجلة التمكين الاجتماعي. مجلد 2، ع. 4، ديسمبر. ص: 157 – 165.

غيات بوفلجة (2020) فلسفة الفعل وإشكالية التنمية في الوطن العربي- **مجلة أبعاد**، مجلد 6، عدد 2، ديسمبر، ص: 9- 20.

GHIAT Boufeldja (2020) Cultural Dimensions of Management and Constraints of Applying Transferred HRM Practices in Developing Countries. Journal of Human Development and Education for Specialized Research. Vol. 6, N° 2. Pp. 225-237.